فكاهات

رواية

الحسناء (١)

رُوي انهُ في اثناء الحرب التي ثارت بين الدولة العثمانية والروسية سطا الروس على قبائل التتر فنكلوا بهم تنكيلاً وطردوهم من منازلهم واوطانهم بعد ان نهبوا اموالهم وساقوا نساءهم سبايا . وكان للتتر الجراكسة رئيس بطل همام يقال لهُ الحاجّ مراد لم يألُ جهداً في الدفاع عن قومهِ وجمع رجالهِ وحضّهم على المكافحة والثبات الى ان قلّت جنودهُ وكثرت جيوش الروس فاضطرّتهُ الى الهزيمة فراراً بحياتهِ ودخلت فرسان الروس منزلهُ فسلبت اموالهُ ولم يكن لهُ من العيال سوى ابنةٍ كالشمس في ريعان النهار لم تكد تبلغ الثانية عشرة من سنيها فاخذها احد قوادهم ولم يعد احدٌ يدري عنها شيئاً . اما والدها فلم يزل يفرّ امام مطارديهِ من بلدة الى اخرى الى ان بلغ معسكر الفِرَق العثمانية فانحاز تحت لوآئها ورهن سيفهُ للاخذ بثار بلادهِ والانتقام من اعدآئهِ . ولما تفاقم خطب الحرب بين الدولتين ارسلت كلٌّ من انكلترا وفرنسا رجالاً ينجدون رجال السلطان في القتال وانفذت الاولى بعض مدرعاتها الحربية لصدّ الروس عن التقدم ولاستخلاص الحصون التي كانوا قد غنموها كما

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

هو معلوم في التاريخ

وكانت الدوارع الانكليزية المذكورة تسير من ميناء الى آخر عملاً باوامر السردار العثماني لاغاثة بعض المواقع وتدمير غيرها . وكان الروسيون بعد ايقاعهم بالجراكسة قد افتتحوا مدينة كرتش وذلك قبل حادثة الرواية بثلاث سنوات فعاثوا فيها وافسدوا وبنى قائدهم البرنس ورنزوف في اجمل بقعة من المدينة قصراً فسيحاً واسع الارجاء زائد الاتقان وجعل همهُ مع المحافظة على المدينة ان يخزن في قصرهِ هذا المؤن والذخائر بينما كانت رجالهُ تسعى في تدمير المدينة ونهب بيوتها واستباحة ما حرَّمهُ الله والطبيعة عليهم ولم يمضِ الكثير حتى اصبحت اهالي المدينة في اشدّ الحاجة والفقر المدقع وكان قد نزح الى كرنش سابقاً بعض التتر وقد اختبروا قبلاً مظالم الروس فايقنوا بالهلاك وقد سُدَّت في وجوههم سبل النجاة

وبلغ السردار العثماني ما آلت اليهِ احوال سكان المدينة فطاب الى الجنرال الانكليزي ان يرسل من يعتمد عليهِ لانقاذ المدينة فاستدعى ربّان احدى السفن وجهزهُ بالاوامر اللازمة فانطلقت دارعتهُ تمخر عباب البحر قاصدة كرتش . وبلغ الخبر مسامع البرنس ورنزوف وعلم انهُ لا يقوى على مقاومة المدافع الانكليزية فترك قصرهُ تحت عناية خادمٍ شيخ يثق بهِ وخرج بجميع جنودهِ من المدينة في نفس الليلة التي وصلت اليها الدارعة المذكورة . وكان تحت امرة ربان الدارعة فتًى رتبتهُ ملازم اول في الجندية فاستدعاهُ وفوض اليه قيادة مئتي فارس وامرهُ ان ينزل الى المدينة ويتوجه توًّا الى قصر البرنس ورنزوف فيستخرج منهُ ما يوجد فيهِ من المؤن ويفرقهُ على

الاهالي الذين يتضورون جوعاً . وكان الملازم واسمهُ أُسبرْن يتوقع مثل هذه الفرصة لاظهار بسالتهِ طلباً للترقي فاستقبل الامر بوجهٍ باش وسار في مقدمة فرقتهِ كانهُ مدعوٌّ الى وليمة فاخرة . وعلم اسبرن بفرار الروس فارسل من يستطلع اخبارهم فوجد انهم قد اخلوا المدينة باعظم سرعة واشد خوف كما دلهُ على ذلك بقآء مهماتهم ومدافعهم وسائر اثقالهم متروكةً في الارض لتعجيل الفرار وقصدوا سيبستبول لينضموا الى الجيش العام . ولما تحقق اسبرن ذلك توجه الى قصر البرنس وترجل امام بابهِ فاستقبلهُ الخادم المعهود اليهِ في المحافظة على القصر فسألهُ اسبرن عدة مسائل وعلم منهُ ان البرنس اصدر امرهُ قبل براحهِ الى خادمهِ ان لا يمانع في اخراج كل ما في القصر وتسليمهِ الى الانكليز سوى انهُ استحلفهُ ان يبذل جهدهُ في بقآء القصر سالماً لانهُ كان قد انفق على اقامتهِ الاموال الطائلة آملاً انهُ بعد انقضآء الحرب يعود فيسكن في تلك البقعة . ثم قال الخادم لاسبرن اني مستعدٌّ يا مولاي ان اسير في خدمتك الى داخل القصر وانفذ اوامرك بكل دقة وطاعة لكن ارغب اليك ان لا تدخل بكل هؤلآء الجنود فاني اخاف على التحف الموجودة في غُرَف القصر . وبعد مباحثة قليلة في شؤون مختلفة امر اسبرن رجالهُ ان ينتظروهُ على شاطئ البحر ودخل مع الخادم الى داخل القصر . وجعل الخادم يسير بأُسبرْن من غرفةٍ الى غرفة ومن رواقٍ الى آخر ويريهِ الرياش الثمين والتحف الغالية والجواهر النادرة وكان اسبرن لا يهتمُّ بشيءٍ من ذلك بل يلحّ على الخادم ان يوصلهُ الى مستودع المؤونة الى ان بلغا سلماً فنزلاهُ وانتهى بهما الى بابٍ واسع فدخلاهُ واذا بهِ يؤدّي

الى رواقٍ فسيح الى جانبهِ غرف ملأى ببراميل اللحوم المقددة والبقسماط والحبوب وغير ذلك من المأكولات مما لو وُزّع على اهالي المدينة بتدبير لكفاهم مدةً لا تقل عن شهرين . فقال أُسبرن يجب ان نخرج هذه حالاً الى المساكين الذين يموتون جوعاً وسأستدعي رجالي لنقلها . فقال الخادم عفواً يا مولاي انني اتوسل اليك ان لا تسمح لرجالك بالدخول الى القصر وقد وعدتني ان لا تسعى في خرابهِ بل ارسل مندوباً من قبلك وانا اسلم اليهِ على باب القصر كل ما تطلبهُ من المؤن . فقال أُسبرن لا بأس فسأذهب وفي المساء ارسل اليك من يقوم بهذا الامر . ولما اراد اسبرن الخروج رأى الى يمينهِ باباً آخر فسأل الخادم الى اين يوصل هذا قال الى الحديقة وظهر على الخادم بعض الاضطراب فانتبه اسبرن لذلك وطلب ان يلجهُ . فقال الخادم ولكن يا مولاي ليس في الحديقة ما يهمك ان تراهُ . قال لا بد لي من دخولها . فامتقع لون الخادم ورأى اسبرن ارتباكهُ فخطر لهُ انهُ ربما يكون البرنس ورنزوف لا يزال مختبئاً فيها وتصور انهُ سيراهُ ويمسكهُ اسيراً فيقودهُ الى ربان الدارعة وينال بذلك ما طمحت اليهِ نفسهُ من الترقي ورفعة المقام . وبعد ان غاص حيناً في تأملاتهِ انتبه فرأى الخادم لا يزال واقفاً امامهُ كالمبهوت فصاح بهِ ان افتح الباب والا ضربت عنقك للحال ثم وضع يدهُ على مقبض سيفهِ ورأى الخادم انهُ لم يعد في امكانهِ المماطلة فاسرع الى الباب وفتحهُ بيدٍ مرتجفة ودخل اسبرن فجعل يتمشى بين الاشجار والرياحين وهو يعجب من حسن الحديقة واتقان تقسيمها الى ان رأى في وسطها حجرةً صغيرة تظللها الاشجار محكمة الصنعة حسنة الهيئة وخُيّل لهُ انهُ رأى

في نافذةٍ منها شبح انسان فلم يشك في وجود البرنس مختفياً فيها وتقدم الى ناحية الحجرة المذكورة . اما الخادم فجثا امام اسبرن وجعل يبتهل اليهِ ان لا يتقدم الى الحجرة ويؤكد لهُ ان ليس هنالك ما يهمهُ مرآهُ فلم يكن الحاحهُ الاّ ليزيد في رغبة اسبرن فقال للخادم لا بد يا هذا من الدخول والويل لك ان خالفتني وقرأ الخادم في عيني اسبرن التصميم القاطع فسار امامهُ صاغراً الى الباب وفتحهُ . فدخل اسبرن وبنظرةٍ واحدة فحص جميع ما في الغرفة فلم يرَ فيها احداً خلافاً لما تصور قبلاً ثم ظهر لهُ بابٌ آخر فهجم اليهِ وفتحهُ بيدهِ واذ ذاك وقع بصرهُ على حوريةٍ من الحور رقيقة الخصر باسمة الثغر سوداء الشعر بيضاء اللون ذابلة الجفن وقد جلست على مقعدٍ من الدمقس واسندت رأسها الى يدها فسقط القميص الى مرفقها وبان من تحتهِ عصاً من العاج وقد احاطت بها ثلاثٌ من الجواري يظهر انهنَّ خادماتٌ لها فوقف اسبرن حيناً وهو مبهوتٌ يتفرس في ذلك الجمال الملكي ثم رجع الى الغرفة الاولى فاعترضهُ الخادم قائلاً قد رأيت يا مولاي ان ليس البرنس ورنزوف هنا وعسى ان تكون قد اقتنعت بذلك غير اني اجثو على قدميك وارغب اليك ان تنسى ما رأيت ضمن هذا الجدار وان لا تسعى في زيادة استعلام عن ذلك وانا واثقٌ من كرمك وانفة نفسك ان تعدني بذلك فوعدهُ اسبرن وخرج وهو في حيرةٍ تامة وبعد خروجهِ اتفق مع الخادم على ان يرسل اليهِ نفراً من رجالهِ لاخذ المؤونة اللازمة للشعب الجائع . ثم سار اسبرن وهو يفكر في ربة ذلك الجمال البديع واخذت تتقاذفهُ تيارات التخمينات وهو يقول هل هذه الغادة سبيةٌ او مقيمة عن رضى . وانهُ كذلك

اذ رأى في طريقهِ شيخاً علم من هيئتهِ انهُ من مشايخ الجراكسة فحيّاهُ بلغتهِ ودار بينهما حديثٌ قصير علم منهُ اسبرن انهُ غريب الديار سائح في تلك القفار وقد وصل الى مدينة كرتش تعباً جائعاً وجال علهُ يجد لهُ مأوًى فلم يرَ محلاً يبيت فيهِ ولا شيئاً يقتات بهِ . فقال لهُ اسبرن انهُ اذا كان يحبّ ان يبيت في قصر البرنس ورنزوف فهو يسهل لهُ ذلك . فسُرّ الشيخ بذلك وشكر فعاد بهِ الى القصر واوصى الخادم ان يضيفهُ تلك الليلة . ولما عاد اسبرن الى الباخرة اخبر رئيسهُ بما فعل نهارهُ فاثنى عليهِ واعلمهُ ان الاوامر تقضي برحيلهم عن كرتش في مسآء اليوم الثاني واوصاهُ ان يعود في الغد ويخرج المؤونة من القصر لتوزع على الاهالي وان يتفقد المهاجرين من التتر والجركس حتى اذا شآء احدٌ الرجوع الى وطنهِ فالدارعة مستعدة لنقلهِ الى حيث يشآء

ولم يصدق اسبرن ان اضآء الصباح التالي حتى خرج الى البر راجياً ان يتزود بنظرةٍ اخرى من تلك الفاتنة ولما كان قد وعد الخادم انهُ لا يفاتحهُ بحديثها بعدُ عمد الى طريقةٍ اخرى فتوجه من جهة ثانية الى حديقة القصر واستعان باحدى الاشجار فتسلق حائط الحديقة ووثب الى داخلها ثم سار متحذراً الى ناحية الحجرة . وقبل ان يصل اليها رأى بابها قد فُتح وخرجت الفتاة منهُ وجعلت تتقدم الى طرف الحديقة بقدم واجفة فكمن اسبرن بين النبات المشتبك ليرى الغاية من مسيرها ثم نظر من الجهة الثانية واذا بالشيخ الجركسي الذي صادفهُ بالامس قادمٌ من طرف الحديقة حتى التقى بالفتاة فانحنى عليها يقبلها وهي تقبل يدهُ ووقفا يتكلمان هنيهةً بصوتٍ لم يسمعهُ

اسبرن ثم عادا الى القبلات وبعد ذلك افترقا وعاد كلٌّ من حيث اتى . ورأى اسبرن في المسألة سرًّا لم يتمكن من حل معماهُ ولكنهُ عزم على مفاتحة الشيخ بالامر واذ ذاك عاد فوثب الجدار ودخل الى القصر من بابهِ ورأى الخادم فاوعز اليهِ بالاوامر اللازمة ثم رأى الشيخ خارجاً فرافقهُ في طريقهِ واعلمهُ ان الدارعة تسافر في ذلك المساء وانها مستعدة لتقل من شاء من متغربي التتر الى اوطانهم . فاظهر الشيخ سرورهُ بذلك ولكنهُ وقف للحال مفكراً فقال لهُ اسبرن ألم يسرك هذا الخبر اكثر من مقابلتك لفتاة القصر صباحاً . فذُعر الشيخ ولما رأى ان لاسبرن الماماً بالامر قال تعالَ اقص عليك الامر . انا الحاج مراد الذي ولا بد سمعت بهِ وقد حرمني القدر كل افراد اسرتي سوى فتاةٍ عذراء تدعى حسناء سباها الروس في اثناء حربنا الاخيرة منذ ثلاث سنوات وكان لها من العمر اثنتا عشرة سنة . وقد قضيت هذه المدة كلها في البحث عنها حتى علمت اخيراً انها هي المسجونة في قصر البرنس وقد قابلتها هذا الصباح وعلمت انها في رغد وسرور تنتظر خلاصها من هذا الاسر وهي لم تزل مرعية الكرامة مصونة الطهر ولم يجترئ بعد ذلك البرنس الظالم على ان يدنو منها وقد صممت ان اسعى في خلاصها فهل لك ان تساعدني في ذلك ايها الفتى . ولم يكن عند أُسبرن شيءٌ احب من ذلك فوعدهُ خيراً . وفي المساء انهمك خادم القصر في تسليم المؤن للعساكر فذهب اسبرن والحاج مراد الى الحديقة ودخل الحاج الى ابنتهِ فاخرجها مع خادماتها واخذهم اسبرن الى قاربٍ كان بالانتظار فمخر بهم للحال الى السفينة . ولما اكمل اسبرن مهمتهُ تبعهم الى البحر وبعد ان غربت

الشمس سارت بهم الباخرة تشق عباب اليمّ آخذةً جهة انابا وهي مدينة الحاج مراد . اما اسبرن فلم يتمكن من اخفآء ما ألم بهِ من الكلف بحب حسنآء فقاتحها بحديث الحب فظهر لهُ انها قد اصابها ما اصابهُ منذ نظرتهُ اول نظرة . اما الحاج مراد فلم يخفَ عليهِ ما اضمر اسبرن من محبة ابنتهِ فاستدعاهُ الى جانب وقال لهُ قد فهمت ما بك من الميل الى ابنتي لكني ارجو منك ان لا تشغل افكارها بشيء من ذلك فان ما في نفسك لن يتم وان كنت اعز الناس عندي واحقهم بها لانك انت الذي رددتها عليّ وانقذتها من مخالب الاسر ولكنك تعلم ان ما بيننا من اختلاف المعتقد يمنع من صلة القرابة . فلما سمع اسبرن هذا الكلام وقع على سماعهِ كوقوع الصاعقة غير انهُ تجلد واستعان بعزة نفسهِ على مقاومة هواهُ وقد رأى ما في كلام الحاج مراد من الصواب فطوى عن الامر كشحاً وقلبهُ يلتهب بنيران الغرام . ولما بلغت الباخرة انابا انزلت ركابها ومن جملتهم الحاج مراد وابنتهُ حسنآء فانصرفا بعد ان ودعا اسبرن وشكراهُ على مزيد اعتنائهِ بهما

وكان بعد بضعة اشهر ان عاد الروس الى اضطهاد الجراكسة في نواحي انابا وقسم الحظ لباخرة اسبرن ان تذهب الى ذلك الثغر للمدافعة عن اولئك المساكين ومقاومة الروس وخرج القائد الانكليزي برجالهِ الى البر فالتقى بالروسيين واشتبك بينهم قتالٌ هائل اجلى عن انتصار الانكليز وفشل الروس بعد ان فقد الانكليز عدداً عظيماً من رجالهم وكان بين المفقودين اسبرن

وبعد الموقعة ببضعة ايام افاق اسبرن من نومهِ فاذا هو على سرير من الدمقس والى جانبهِ فتاة كالحور العين بيدها مروحة من ريش النعام تروّح

لهُ بها وتمسح عرقهُ المتحاب من جبينهِ بمنديل حريري في يدها. ولما تفرس فيها مليًّا عرفها انها حسناء فكلمتهُ ولاطفتهُ ثم قصَّت عليهِ انهُ بعد الموقعة اظهر القائد الانكليزي اسفهُ العظيم على من فقد من رجالهِ وكان اشد اسفهِ على اسبرن فندبهُ وهو يظنهُ قد مات وكانت قد بلغتهُ اوامر مشددة بالرجوع للانضمام الى اسطولهِ فعاد سريعاً. قالت اما ابي فلما بلغهُ خبر سقوطك طار رشدهُ وتوجه للحال الى ساحة القتال علهُ يهتدي اليك فرآك وقد اثخنتك الجراح وبعد الفحص وجد انك لا تزال حيًّا فحملك الى هنا وجعل يعتني بك ويعالجك الى ان شفيت ولله الحمد. واذ ذاك دخل الحاج مراد فهنأ اسبرن بسلامتهِ وشكرهُ اسبرن على حسن صنيعهِ فقال الحاج لا تشكرني يا هذا فان ما فعلتهُ ليس الا مكافأةً لصنيعك وقد ذكرتُ لك سابقاً ان المانع من مصاهرتك لي اختلاف المعتقد والواقع ليس كذلك ولكن كرهت ان تكون ابنتي في عصمة رجل يعتبر انهُ قد اشترى حياتها فاما الآن وقد وفيتك مثل جميلك فدونكها ان شئت فلا أَحبَّ اليَّ من ان يكون مثلك صهري لكن اشترط عليك ان لا تعترضها في امر دينها بل تطاق لها الحرية فيهِ الى ان تشاء هي ان تغير معتقدها

ولما نقه اسبرن عقد لهُ على حسناء وبعد ان قضى مدةً في بيت حميهِ استأذنهُ في الرجوع الى بلادهِ وسافر هو وزوجتهُ بعد ان ودَّعا اباها وسائر اسرتها فقضيا بقية ايامهما في بلاد الانكليز وهما على اتم الرغد واصفى النعيم